عالمية اللغة العربية

الدكتور أحمد مطلوب

عضو المجمع العلمي – بغداد

(1)

كثر الحديث عن اللغة العالمية كثرة جعلت الناس في دوامة، وأخافت من يؤمن بهويته ولغته وثقافته، بعد أن ذرّت العولمة بقرنيها، وأخذت تجتاح البلدان باسم التقدم العلمي وحرية الإنسان.

إن أكثر اللغات استعمالاً في العصر الحديث: الصينية. والإسبانية، والإنكليزية، والفرنسية، ولا تعد الصينية لغة عالمية وإن تكلم بها أكثر من مليار؛ لأنها لا تستعمل خارج بلاد الصين، وأما اللغات الثلاث الأخرى فهي مما أشاعه الاستعمار في الأمريكيتين، واسترالية، ونيوزلندة، وفي بعض أنحاء أفريقية، وآسية، ولولا الاستعمار ما عرفتها هذه البلدان التي كانت مكتفية بلغاتها القومية والوطنية, ولا انتشرت هذا الانتشار الواسع، وفرضت على البلدان المحتلة، وأصبحت لغات رسمية، أو لغات التعليم والمعاملات التجارية، أو وجهاً من وجوه الحضارة.

أما اللغة العربية فهل تعد عالمية؟ وكيف تكون عالمية في العصر الحديث؟.

(2)

كانت العربية قوية حينما كان العرب أقوياء، وكانت عالمية يوم كان العرب أحراراً لهم دولة تمتد من الأندلس إلى الصين، وكانت في هذه الأصقاع المترامية لغة تخاطب ودين وتعليم وتأليف في مختلف العلوم التي ذكر منها طاش كبري زادة في كتابه (مفتاح السعادة ومصباح السيادة) ثلاثمائة واثنين وعشرين علماً، اقتضتها الحياة والتقدم العلمي الذي ازدهر في ظل الدولة العربية الإسلامية، وكان من تلك العلوم –ولا غرابة– علما الرقص والغنج، وكان هذا دلالة على تفتح العرب، واهتمامهم بكل ما يخص الإنسان من علم وترفيه وحياة رغيدة.

استطاعت العربية أن تعبّر عن تلك العلوم والفنون، ولو كانت المستجدات أكثر لاستوعبتها لما فيها من طاقات تتمثل في وسائل تنميتها كالقياس، والاشتقاق، والتوليد، والنحت، والتعريب.

لقد عرف العرب أهمية اللغة، ولمحوا الصلة الوثيقة بينها وبين الحضارة فاهتموا بها لتكون وعاء للحضارة التي عاشوا في ظلها، ولتكون خير وسيلة تعبر عن حضارتهم وملامح حياتهم. وقد بدأت تزدهر بعد نزول القرآن الكريم الذي أحدث ثورة فكرية، وهزّة لغوية، إذ نقل الإسلام ألفاظاً من مواضع إلى مواضع، واستحدث ألفاظاً لم تكن معروفة من قبل بنيتها أو بمعناها الجديد، فنمت في ظله وازدهرت لتستوعب الجديد، ولم تعد لغة الشعر والخطابة فحسب وإنما أصبحت لغة العلوم التي بدأت العناية بها في عهد بني أمية، وكان خالد بن يزيد بن معاوية قد اهتم بالعلوم الطبيعية، وأمر بنقل الكتب من اللسان اليوناني إلى العربي، وكانت له كتب ورسائل، وفي كتاب (الفهرسة) لابن النديم، إنه الذي عني بإخراج كتب القدماء في الصنعة، وأول من تُرجم له كتب الطب والنجوم والكيمياء، ورأى ابن النديم من كتبه :كتاب الحرارات، وكتاب الصحيفة الكبير، وكتاب الصحيفة الصغير، وكتاب وصيته إلى ابنه في الصنعة.

استوعبت العربية هذه العلوم منذ عهد مبكر، وكانت وعاء للنهضة العلمية التي بدأت تطرق الحياة العربية، وللحضارة التي بدأت تورق وتزدهر وتقدم ثمراً جنياً في العصر العباسي الذي بدأت فيه حركة التدوين والتأليف والترجمة تنمو وتتسع، وكان لظهور كتب الفقه وعلوم القرآن والحديث واللغة والفلسفة وعلم الكلام أثر كبير في نمو العربية واتساعها، إذ أخذ المؤلفون والمترجمون يضعون مصطلحات مستفيدين من قدرتها في الوضع، وكان للمتكلمين–علماء الكلام– فضل في نموها واستيعابها العلوم الجديدة، قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في كتاب (الحيوان): ((وهم تخيّروا الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على ما لم يكن له من لغة العرب اسم، فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف، وقدوة لكل تابع)).

وأشار في كتاب (البيان والتبيين) إلى وضع الخليل بن أحمد الفراهيدي لأوزان الشعر ألقاباً لم تكن العرب تتعارف الأعاريض بتلك الألقاب، وتلك الأوزان بتلك الأسماء، وأشار إلى وضع النحاة وأصحاب الحساب أسماء جعلوها علامات للتفاهم، وقال: ((وإنما جازت هذه الألفاظ في صناعة الكلام حين عجزت الأسماء عن اتساع المعاني)).

وأخذت العلوم تتسع، وبدأت الكتب تؤلف فيها أو تترجم إليها، وشهد العصر العباسي نهضة فكرية وعلمية واسعة المدى، ولتشجيع أولي الأمر على التأليف والترجمة أثر في ذلك الازدهار، وكان لمرونة العربية دور كبير في استيعاب ألوان الثقافة، والتعبير عن الحضارة التي ازدهرت، وكانت حركة التأليف صدى لها إذ وضعت الكتب في العلوم المختلفة، وترجمة كتب الفلسفة والمنطق والطب والرياضيات والفلك والكيمياء والصيدلة والموسيقى، وغيرها من العلوم التي ذكرها الفارابي في (إحصاء العلوم)، وابن النديم في (الفهرست) وإخوان الصفا في رسالتهم، والخوارزمي في (مفاتيح العلوم)، وطاش كبري زادة في (مفتاح السعادة ومصباح السيادة) كارل بروكلمان في (تاريخ الأدب العربي)، والدكتور فؤاد سزكين في (تأريخ التراث العربي) ومؤلفو كتب التراث العلمي عند العرب.

(3)

كانت العربية يوم ازدهار الحضارة العربية الإسلامية لغة عالمية، ولم تتوقف عن النمو وإنما سايرت المستجدات، وحملت الحضارة إلى العالم المعمور يومذاك، وكان غير العرب يتعلمونها؛ لأنها لغة الدولة والعلم والتأليف. وتتجلى عالميتها في ذلك العهد في:

أولاً: التأليف بالعربية، إذ منذ أن شع نور الإسلام على العالم بدأ التأليف بها، وكان لها أثر كبير في قلوب المسلمين لأنها لغة القرآن الكريم، واعتزوا بها كل الاعتزاز،وهذا أبو الريحان البيروني قد قال في مقدمة كتاب (الصيدنة): ((والهجو بالعربية أحب إليّ من المدح بالفارسية، وسيعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علم قد نقل إلى الفارسي كيف ذهب رونقه، وكسف باله، واسودّ وجهه، وزال الانتفاع به، إذ لا تصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكسروية، والأسمار الليلية)).

وقال جار الله الزمخشري في مقدمة كتاب (المفصل): ((اللّه أحمد على أن جعلني من علماء العربية، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية، وأبى لي أن أنفرد من صميم أنصارهم وأمتاز، وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز)).

ومعنى هذا أن الاعتزاز بالعربية لم يكن مقصوراً على العرب وحدهم، وإنما كان المسلمون من غير العرب يعتزون بها، ويفضلونها على لغاتهم،ويؤلفون بها، وينظمون الشعر بها، وهو ما يتضح في التراث العربي والإسلامي الذي ظل شاهداً على العناية بلغة القرآن الكريم حتى اليوم.

وامتدت العناية بالعربية إلى أوربة، وكان للكتب العربية أثر في النهضة الأوربية، إذ نشطت ترجمتها إلى اللغات الأوربية منذ القرن الحادي عشر للميلاد، ولم يقتصر الغرب على ترجمة مؤلفات العرب والمسلمين، وإنما نقلت كتب علماء اليونان التي ترجمتها العرب مثل كتب جالينوس، وبقراط، وإفلاطون، وأرسطو، وأقليدس، وأرخميدس، وبطليموس.

وكان اهتمام أوربة بترجمة كتب العرب العلمية أكثر من اهتمامها بغيرها، ولذلك عنيت بترجمة كتب الفلك والطب والفيزياء والكيمياء والرياضيات وعلم الحيل (التقنيات) وأصبحت بين أيدي الدارسين وطلبة الجامعات كتب: البتاني، والخوارزمي، والرازي، وابن سينا، وابن الهيثم، وجابر بن حيان، وابن النفيس، والزهراوي، فضلاً عن ترجمة بعض العلوم الإنسانية مثل كتب الفقه والتأريخ، والمسالك والممالك، التي خدمت أوربة في تحقيق أهدافها التوسعية في القرنين الماضيين.

ثانياً: الاستعانة بالمصطلحات العلمية والألفاظ الحضارية إذ تأثر كثير من اللغات الغربية والشرقية بالعربية ودخلت فيها ألفاظ عربية، ومن تلك اللغات الأسبانية، والإنكليزية،والفرنسية، والألمانية، والمالطية، والفارسية، والتركية، والأوردية، واعترف المنصفون من الباحثين بهذا التأثير، قالت الدكتورة زيغرد هونكه في كتاب (شمس العرب تسطع على الغرب): ((إن في لغتنا –تقصد الألمانية– كلمات عربية عديدة، وإننا لندين– والتأريخ شاهد على ذلك– في كثير من أسباب الحياة الحاضرة للعرب، وكم أخذنا عنهم من حاجات وأشياء زينت حياتنا بزخرفة محببة إلى النفوس، وألقت أضواء باهرة جميلة على عالمنا الرتيب الذي كان يوماً من الأيام قاتماً كالحاً باهتاً، وزركشته بالتوابل الطيبة النكهة، وطيبته بالعبير العابق، وأحياناً باللون الساحر، وزادته صحة وجمالاً وأناقة وروعة)).

ثالثاً: اتخاذ مناهج علوم اللغة العربية في تأليف الكتب اللغوية، ومن ذلك تأثر النحو العبري بالنحو العربي، إذ أن النموذج العربي هو الذي احتذاه العبرانيون، وأنه كان الحافز لنحاة العبرانية على تأليف كتبهم، وأن كتب اليهود النحوية الأولى كتبت بالعربية واستخدمت مصطلحات النحو العربي، واتبعت النسق الذي كان النحاة العرب يتبعونه في كتبهم.

وتأثرت علوم اللغة الفارسية بعلوم اللغة العربية، ونحا المؤلفون بالفارسية منحى العرب، ومن أوضح ذلك كتب البلاغة مثل (ترجمان البلاغة) لمحمد بن عمران الرادوياني، و(حدائق السحر في دقائق الشعر) لرشيد الدين الوطواط.

رابعاً: التأثر بإيقاع الشعر العربي، وقد أثبت الباحثون أن الشعر الأوربي والسرياني والعبري تأثر بأوزان الشعر العربي وقوافيه، يقول لوبون في كتاب (حضارة العرب): ((إن الأوربيين اقتبسوا فن القافية من العرب، ودلّت مباحث (فيادرو) وغيره من الكتاب الكثيرين على هذا الأمر الذي كان الأسقف (هويه) بيّنه منذ زمن طويل))، ويقول: ((ويعزى الشعر الأسباني والشعر البروفنسي إلى ما كان لشعراء الأندلس من تأثير)). وذكرت

الدكتورة زيغرد هونكه أن الشعراء الغنائيين أخذوا عن الأوزان والقوافي العربية، وعن كل طابع مميز للشعر الأندلسي.

ودرس الدكتور محمد عوني عبد الرؤوف أثر أوزان الشعر العربي وقوافيه في الشعر السرياني والعبري، وأوضح ذلك التأثير في كتابيه (القوافي والأصوات اللغوية) و(بدايات الشعر العربي).

خامساً: اتخاذ بعض اللغات كالتركية القديمة، والأوردية، والفارسية، وبعض اللغات الأفريقية الحرف العربي وسيلة للكتابة، واتخذ الحرف العربي–فضلاً عن ذلك–زينة جمالية في المباني واللوحات الفنية.

إن هذا التأثير وغيره ما كان ليتم لولا قدرة اللغة العربية على استيعاب المستجدات، وما فيها من جمال الإيقاع، وهذا من عالميتها التي اتسمت بسمات حددها الدكتور إبراهيم أنيس في كتاب (اللغة بين القومية والعالمية) بثلاث سمات:

الأولى: أنها لا تخاطب الكبير بخطاب، والصغير بخطاب آخر، ولا تخلط بين ضمير المفرد وضمير الجمع، فيقول –سبحانه وتعالى–: ((أنا ربكم الأعلى))، ويقول الرسول محمد–صلى الله عليه وسلم–: ((إنما أنا بشر مثلكم))، ويقول الناس: ((ما أنت إلا بشر مثلنا))، إلى غير ذلك من أساليب أصيلة سوّت بين الناس في الخطاب والغيبة والتكلم.

الثانية: سعة انتشارها، واصطناع شعوب متعددة لها.

الثالثة: ترحيبها بالألفاظ التي اقترضتها من اللغات الأخرى، واستغلتها في المصطلحات ولغة الكلام.

وكان يوهان فك قد قال في كتاب (العربية): ((إن العربية الفصحى لندين حتى يومنا هذا بمركزنا العالمي أساساً لهذه الحقيقة الثابتة، وهي أنها قامت في جميع البلدان العربية وما عداها من الأقاليم الداخلة في المحيط الإسلامي رمزاً لغوياً لوحدة العالم الإسلامي والثقافة والمدنية)).

(4)

هذا ما كان من عالمية اللغة العربية في القديم، فما حالها في العصر الحديث؟

عرف العرب أهمية لغتهم في بداية النهضة الحديثة، وأولوها عناية كبيرة، ونشروا كثيراً كم كتب التراث ليكون ردءاً لهم يحمي ثقافتهم وحضارتهم وقيمهم التي بدأت تتعرض للغزو الثقافي والاستلاب. وكان من اعتزازهم بلغة القرآن الكريم تدريس العلوم بها، وكانت مدرسة القصر العيني بالقاهرة تدرّس الطب بالعربية، ويضع أساتذتها الكتب بها، ودرّست الجامعة الأمريكية في بيروت –في أول نشأتها–الطب بالعربية، ووضع أساتذتها الكتب النافعة، وكانت تهتم بلغة الكتاب العزيز، وقد أنشأت (جمعية تنشيط اللغة العربية) للعناية بلغة الضاد، واستقطاب الأدباء من كل حدب وصوب، كما كان يحدث في مطلع القرن العشرين، وفي ديوان خليل مطران ما يلقي الضوء على هذه الجمعية النشطة حين ألقى سنة 1924 قصائد في الجامعة الأمريكية بدعوة من هذه الجمعية التي كانت تنشط للعناية بالعربية، هذا فضلاً عما تقوم به من رعاية لأصحاب المواهب الفنية، وقد تخرج فيها حينذاك شعراء كبار مثل وجيه البارودي، وحافظ جميل، وإبراهيم طوقان.

ولكن مدرسة القصر العيني والجامعة الأمريكية تنكرتا للعربية بعد ذلك وفرضتا لغة المستعمر، وسارت على نهجهما الجديد الجامعات العربية، ما عدا القليل منها، حيث تتعرض اللغة العربية لهجمات ضارية تحاول

حرف هذه الجامعات عن نهجها الذي اختطته من إيمانها بالأمة العربية ولغتها التي أثبتت قدرتها على تدريس العلوم بها، وتفوق الدارسين بها على أقرانهم في البلدان الأجنبية عند إكمالهم الدراسات العليا أو التخصصية.

إن متابعة اللغة العربية منذ مطلع القرن العشرين تظهر قدرتها على استيعاب الجديد، فبعد أن كانت لغة الصحافة –مثلاً– محصورة بالألفاظ والأساليب القديمة اتسع نطاقها وأصبحت قادرة على التعبير عن مستجدات، ومثلها الإذاعتان المسموعة والمرئية، وأصبح لوسائل الإعلام دور في إشاعة العربية الفصيحة، ونقل ألوان الحضارة، وصنوف العلوم بألفاظ صافية، وأسلوب عربي مبين. وما كان لها أن تقوم بذلك لولا مرونة العربية، ولولا رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وأخلصوا لأمتهم وكتاب العربية الأكبر؛ القرآن الكريم.

وتتضح الصلة بين اللغة والحياة الجديدة في مجال التأليف والترجمة –أيضاً– إذ صدرت ملايين الكتب في الآداب والعلوم والفنون بلغة عربية سليمة، ووضعت في كل علم وفن مئات الآلاف من المصطلحات العلمية والألفاظ الحضارية، وأصبح التأليف والترجمة ميسورين بعد أن كانا محصورين في مجال ضيق في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

لقد تآزرت عدة جهات لجعل العربية قادرة على استيعاب الجديد، ومن تلك الجهات:

أولاً: أساتذة اللغة العربية حيث عنوا بها وتابعوا سيرها، ووضعوا الكتب في وسائل نموّها، وكان هذا إخلاصاً للغتهم وإدراكاً لارتباطها بالمجتمع الجديد الذي يحيون فيه، كما أدرك العرب القدماء أن اللغة ظاهرة اجتماعية، فعنوا بها وسعوا إلى تنميتها لتساير تقدم المجتمع وازدهار الحضارة في ظله.

ثانياً: المجامع العلمية واللغوية التي كان لها دور كبير في تنمية العربية بما وضعت من مصطلحات علمية وألفاظ حضارية، وما ألفت من معاجم، ونشرت من بحوث ودراسات. وهذا عمل كبير له تأثير في واقع اللغة العربية المعاصرة، وقد يكون له تأثير أعظم لو كان لجميع المجامع سلطة تنفيذ قراراتها وتوصياتها، وما تتخذ من أعمال.

ثالثاً: وسائل الإعلام، ولها دور في نهضة العربية على الرغم من دعوة بعضها إلى تمزيق شمل العرب، وحرف لغتهم التي عاشت في ضميرهم آلاف السنين.

رابعاً: الاستشراق، إذ عكف المستشرقون على دراسة اللغة العربية وتحقيق التراث العربي، وكتابة البحوث التي نفعت اللغة، وتأسيس المعاهد لتدريس العربية، بغض النظر عما وراء ذلك من أهداف.

إن واقع العربية في هذه الأيام يؤهلها لتكون عالمية كما كانت في عهد ازدهار الحضارة العربية الإسلامية على الرغم مما يحاك ضدها من دعاة العامية،ودعاة الأخذ بلغة أجنبية.

(5)

كانت اللغة العربية عالمية في القديم، وهي الآن ثالث لغة في العالم وإحدى اللغات المعتمدة في منظمة هيئة الأمم، ولكن أيكفي ذلك؟ وهل هناك من أمل في أن تصبح عالمية؟

قبل كل شيء لابد من تحديد معنى العالمية؛ لأن هناك اختلافاً في وجهات النظر، فمنهم من يرى أنها في كثرة المتحدثين بها، ومنهم من يرى أنها القادرة على استيعاب المستجدات، ومنهم من يرى أنها اللغة الأجنبية التي يعرفها، ومنهم من يرى أن لغة المستعمر هي العالمية، ومنهم من يرى أن لغته هي العالمية.

ثم مل لابد من أن تسود العالم لغة واحدة كالإنكليزية التي يسعى بعضهم إلى أن تسود وتصبح اللغة العالمية المنشودة؟ يبدو أن هذا حلم الإنكليز وأتباعهم، وكان م.م.لويس قد سأل في كتابه (اللغة والمجتمع): ((ما الشكل الذي ستتخذه اللغة العالمية؟)) وأجاب: ((يبدو أننا تستطيع أن نسجّل احتمال أن تكون الإنكليزية هي اللغة العالمية الأولى، ويحتمل أنه لا يوجد لغة يفهمها عدد من الناس أكبر من عدد من يفهمون الإنجليزية)). ودليله أنها ((لغة اثنتين من الدول الأربع الكبرى، ويقف وراءها النفوذ الشاسع للفلم الأمريكي والراديو البريطاني، وهي في صورتها المعدلة لتصير ما يسمى انجليزية أساسية **Basic English**، أصبحت لغة الكومونولث البريطاني للاتصال الخارجي والداخلي على السواء)).

وهذه الفكرة نابعة من العقلية الاستعمارية يوم كانت الشمس لا تغيب عن التاج البريطاني، وقد يقول هذا القول الفرنسيون أو الأسبان أو الصينيون أو الروس أو أية دولة لها نفوذ وامتداد في الساحة الدولية.

إن قدرة أية لغة على التعبير عن المستجدات هي اللغة التي يكون لها وجود على النطاق العالمي بغض النظر عن وجود لغات أخرى لها القدرة نفسها، واللغة العربية التي يتحدث بها أكثر من ثلاثمائة مليون عربي وينتفع بها مليار مسلم، وغير عربي أو مسلم من المهتمين بالاستشراق واللغات الأجنبية لأغراض سياسية وعلمية، فضلاً عن فدرتها على النمو بالوسائل المعروفة لما فيها من حيوية واتساع، كل هذا يضع لغة القرآن الكريم في مصاف اللغات العالمية التي لم تنتشر لولا الاستعمار وسيطرة المحتلين القدامى والجدد الذين اندفع بعضهم بالجيوش، بالعولمة والشركات المتعددة الجنسية، والنزعة الإنسانية، والتحرر من الأغلال.

ولكن ألا يكفي واقع العربية لأن تظل كما هي؟

إن اللغة لا تنمو وتزدهر إن لم يهتم بها أهلوها، وقد اهتم العرب والمسلمون الأوائل بالعربية لأنها لغة قوميتهم وعقيدتهم وثقافتهم، وكانوا حريصين عليها كل الحرص، معتزين بها كل الاعتزاز، ولم يظهر خارجي يدعو إلى التقليل من شأنها أو إلغائها واستعمال لغة أخرى إلا بعد أن تفكك العالم الإسلامي وظهرت دول أحيت لغاتها واتخذتها لغة قومية، كما فعلت جمهوريات الاتحاد السوفيتي بعد انهيار الاتحاد، حيث عادت كل جمهورية إلى لغتها، بعد أن كانت اللغة الرسمية في تلك البلاد.

إن ما يواجه العربية اليوم ليس الأجانب وحدهم وإنما الخوارج المنتسبون إلى الوطن العربي، وكان القرن العشرون قد شهد دعوات إلى تغيير قواعدها والحرف الذي يكتب بها، أو الأخذ بالعامية لغة تعليم وتأليف. وخلقت تلك الدعوات بلبلة في الأوساط الثقافية، وخدع بها بعض الباحثين فدعوا إلى ذلك متخذين الأسلوب العلمي ذريعة وسبيلاً. ولا يدري العربي الغيور وهو يقرأ لهؤلاء أأريد بها شراً؟

إن الذي يعوق جعل العربية عالمية بعض بنيها أو المحسوبون عليها ممن لا يخدمونها كما يخدم الأجانب لغتهم، ولا يصونها كما يفعل غيرهم، فضلاً عن تنكر كثير من أولي الأمر لها خلافاً لما يفعله أولو الأمر في الدول الأجنبية، وما كان يفعله العرب القدماء، من حرص على العربية واعتزاز بها وسعي إلى تنميتها. والتأريخ يتحدث عن جهودهم واهتمامهم بلغة القرآن الكريم ونشرها، وكان الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان من أولئك الرجال حيث كان شديد الحرص على العربية وكان يصغي إلى ما يبدعه الشعراء، ويحث على إتقان العربية. وقد ذكر الدكتور إبراهيم أنيس في كتاب (اللغة بين القومية والعالمية) إن عبد الملك كان يقول

عن ابنه الذي كان لحّاناً: ((أضرّ بالوليد حبنا له فلم نرسله للبادية)) وكان يربط ولاية الحكم بالعربية وكان يقول لابنه الوليد: ((إنه لا يلي أمر العرب إلا من يحسن كلامهم)) وأين هذا من ولاة الأمور في هذه الأيام؟

والعرب إذا أرادوا أن نبوأ لغتهم مكانه بينلغات العالم، عليهم أن يعنوا بها وأن تكون تلك العناية هاجس ولاة الأمور قبل كل شيء ثم تأتني وجوه العناية ومنها:

أولاً: الإيمان بأن اللغة كيان الأمة والوطن ومن ثم يأتي التخطيط العلمي الذي ينفذ على مراحل ويضاف إليه ما يستجد. ولا يتم ذلك إلا بإصدار قانون يحدد الأسس التي يقوم عليها الحفاظ على سلامة اللغة، وتأسيس هيئة عليا تشرف على تنفيذ القانون، وتضع الوسائل التي تنهض باللغة وتقترح القوانين الخاصة بها، وهو ما معمول به في العراق إذ فيه ((الهيئة العليا للعناية باللغة العربية))، وما في الجزائر إذ فيها ((المجلس الأعلى للغة العربية)) ومهامه تشبه مهام هيئة العراق. ومثل هذا في فرنسة ((اللجنة العليا للغة الفرنسية)) فضلاً عن الجمعيات التي تعني بسلامة اللغة، وهذا من إيمانها بأن اللغة تحتاج إلى من يتابع مسيرتها، وكان خليل مطران قد قال في سنة 1923، والعرب في أوج حرصهم على لغتهم:

يُؤدي الفصيح من اللغات إذا غفا عنه الرقيب

ثانياً: المجامع العلمية واللغوية إذ دور كبير في الاهتمام بالعربية، وجعلها قادرة على استيعاب المستجدات. وقد عملت على وضع الدراسات والمصطلحات العلمية والألفاظ الحضارية، ولكن لم يُنتفع كثيراً بما أنجزت، لأنها لا تملك سلطة تنفيذية كالمجمع العلمي في بغداد، إذ نصت المادة التاسعة من قانون ((الحفاظ على سلامة اللغة العربية)) ذي الرقم (64) لسنة 1977م على:

((يكون المجمع العلمي العراقي المرجع الوحيد في وضع المصطلحات العلمية والفنية، وعلى الأجهزة المعنية الرجوع إليه بشأنها)).

ولا يقوم مجمع بغداد بهذا فحسب، وإنما يقوم بتنفيذ ما جاء في قانون ((الحفاظ على سلامة اللغة العربية)) ومنها منح الموافقة على تسمية الشركات والمحال التجارية بأسماء عربية قبل أن تمنحها الجهات المختصة الإجازات الرسمية، فضلاً عما يرد إلى المجمع من استشارات لغوية، وغير ذلك مما يهم لغة الضاد.

هذه هي الخطوة العملية في الاهتمام باللغة العربية وجعلها عالمية؛ لأنه لا ينجح أي عمل من غير تخطيط وتشريع لغوي، واللغة – وإن كانت ظاهرة اجتماعية – لا تترك للتيارات المتصارعة والآراء المتضاربة، والنظريات البعيدة عنها ، وإنما على بنيها أن يتابعوا مسيرتها، ويرصدوا الانحرافات التي يفضي إهمالها إلى مسخ اللغة. وكان العرب الأوائل حريصين على لغتهم، ولذلك ألفوا الكتب في ضبط أصولها، ووضعوا المعاجم لتحديد مبانيها ومعانيها، وأعادوا إلى اللغة ما انحرف عنها بكتب التصحيح اللغوي، ولذلك ظلت نقية إلى حد كبير على الرغم مما مر به العرب من تقهقر وسبات قبل بدء نهضتهم الحديثة في مطلع القرن العشرين.

ثالثًا: الاهتمام بتدريس اللغة العربية في جميع المراحل الدراسية، وجعلها مادة أساسية في مختلف الاختصاصات الجامعية، ولاسيما في كليات التربية، لأن خريجيها يتولون التدريس في التعليم العام، وفي كليات الحقوق (القانون)؛ لأن خريجيها يتولون القضاء والمحاماة، وإتقانهم العربية وأساليبها ودلالة ألفاظها الدقيقة ييسّر فهم القوانين وتنفيذها بدقة وعدل وإنصاف.

ولا ينفذ هذا إلا بقرار ملزم من الدولة، وفي إقراره تعزيز لمكانتها واحترام لهويتها، وتأكيد لاستقلالها. وليس صحيحًا ما يقال من أن الدول قد تتحد ولغاتها مختلفة كما في الاتحاد الأوربي، لأن هذا الاتحاد لم يقم على أساس قومي وإنما على أساس مصالح سياسية واقتصادية بحيث ظلت كل دولة محتفظة بهويتها ولغتها، وقد ينهار الاتحاد بأسرع ما يتوقع حينما تتعارض المصالح بين دوله، وهو ما حصل للاتحاد السوفيتي حينما انهار وعادت كل جمهورية من جمهورياته إلى هويتها ولغتها. وهذا يؤكد أن كل أمة لا تتخلى عن لغتها إذا امتلكت إرادتها، وحققت سيادتها واستقلالها.

رابعًا: تعريب التعليم في الجامعات؛ لأن التدريس باللغة الأم يخدم العملية التربوية ويحقق نتائج باهرة، بخلاف التدريس بلغة أجنبية. وقد وقف التربويون عند هذه المسألة منذ عقود كثيرة، وأكدوا أن التعليم بغير لغة الأم يعد ناقصًا، ومن ذلك التقرير الذي رفعه الدكتور فاضل الجمالي – مدير التدريس والتربية العام – إلى وزير المعارف العراقية في الرابع من شهر آذار سنة 1938م، إذ جاء فيه: ((إن عدم إتقان الطلاب اللغة الإنكليزية يجعل دراستهم عقيمة، لاسيما والكتب كلها إنكليزية، والمحاضرون معظمهم إنكليز. وقد حدث أن رأيت أحد الطلاب المتخرجين لم يستطع قراءة وفهم الكتاب الذي درسه في كلية الطب، وفي هذا خطر على الأرواح لا يمكن أن يقدر))، وهدفه من هذا الاهتمام باللغة الإنكليزية ،كان هذا والزمان مواتٍ والأساتذة إنكليز، والطلبة جادّون، فماذا يقول الدكتور الجمالي اليوم؟

إن التعليم باللغة العربية اليوم في جميع المراحل الدراسية ييسر الفهم، ويسرّع في استيعاب المادة العلمية، ويعزز مكانة لغة الضاد، ويوسع قدراتها للتعبير عن المستجدات، ويدفع العاملين في حقولها إلى المثابرة والعمل الجاد في سبيل الحفاظ عليها وتنميتها، ورفدها بكل جديد، فضلاً عن ردم الهوة بين التعليم العام والتعليم الجامعي التي توقع الطلبة في مشكلة حين الانتقال من اللغة الأم إلى اللغة الأجنبية عند التحاقهم بالجامعات التي لم تعرب التعليم.

ولا يخدم التعريب العربي وحده، وإنما يعزز العربية في الخارج، ويدفع الأجانب إلى تعلمها للرجوع إلى ما ينشر ويذاع بها، كما يتعلم العربي اللغة الأجنبية للرجوع إلى ما يزيد معرفته. وقد يجعل اهتمام العرب بلغتهم دافعا لاهتمام المراكز الاستشراقية ومعاهد تعليم العربية أكثر من عنايتها في الوقت الحاضر، لتتابع ما يحدث في الوطن العربي من تقدم في اللغة واستيعابها المستجدات.

خامساً: جعل النجاح في اللغة العربية شرطاً من شروط التعيين في مؤسسات الدولة والقبول في الدراسات العليا أسوة بامتحان الكفاءة باللغة الأجنبية. والالتزام بذلك في تعيين التدريسيين في الجامعات، وهو ما يجري الآن في العراق إذ لا يعيّن التدريسي إلا بعد الامتحان باللغة العربية مهما كان تخصصه العلمي، ويسري هذا على الموظفين الذين تؤهلهم شهاداتهم العليا لغير عناوين وظائفهم والعمل في الجامعات ليأخذوا مكانتهم العلمية، وينتفعوا بما في ذلك من امتيازات.

سادساً: الاهتمام بلغة الإعلام المقروء والمسموع والمرئي، لأنه ألصق بحياة الناس من غيره، ولا سيما المرئي الذي امتلأت به الأجواء، وأصبح ضرورياً كالماء والهواء والغذاء.

هذا ما ينبغي أن يكون داخل الوطن العربي لتأخذ لغة الضاد دورها في النطاق الإقليمي العربي، ولتبقى حقيقة لا ريب فيها، يؤمن بها العربي، ويحافظ علها، ويسعى إلى تنميتها وازدهارها. أما في الخارج الوطن العربي فمما يعززها:

أولاً: إنشاء معاهد لتدريس اللغة العربية، وفتح المدارس لأبناء العرب المقيمين في ديار الغربة، ولمن يريد التزود من الثقافة العربية، وهذا ما يقوم به الدول الأجنبية، إذ لمعظمها معاهد ومراكز ثقافية في الخارج، مهمتها نشر لغتها وثقافتها إلى جانب تحقيق أهداف تتصل بسياستها الخارجية. وقد كان للمعاهد الثقافية أثر في جذب الملتحقين بها إلى الدول التي أنشأتها، والسفر إليها، والتشبث بما لديها، وإكمال التحصيل العلمي فيها، وبذلك تكون لها مراكز جذب في مختلف البلدان.

ثانياً: نشر الإسلام خارج الوطن العربي لصلته باللغة العربية، لأن القرآن الكريم بلسان عربي مبين. ولولا الإسلام ما عرفت العربية في مشارق الأرض ومغاربها، ولا اهتمت بها المدارس والجامعات في كل بلد ترتفع في مآذنه عبارة ((لا إله إلا الله محمد رسول الله)). ولعل ما تفعله دول أفريقية ودول شرقي آسيا خير دليل على الاهتمام بالعربية من خلال الإسلام وقراءة القرآن الكريم.

ثالثاً: تعيين مستشارين ثقافيين في السفارات العربية من ذوي الاختصاص باللغة العربية، أو المهتمين بها والحريصين عليها ليتابعوا نشاط المعاهد اللغوية والمراكز الثقافية التابعة لدولهم، وأن تكون لهم صلاحيات تؤهلهم للقيام بواجبهم خير قيام.

رابعاً: إلقاء المسؤولين العرب كلماتهم في هيئة ا~لأمم والمحافل الدولية باللغة العربية أسوة بما يفعله المسؤولون في دول العالم اعتزاز بلغتهم وتأكيد لهويتهم، واحتراماً لوطنهم.

خامساً: تقديم البحوث وإلقاؤها بالعربية في المؤتمرات، إذ ليس من العزة الوطنية أن بقدم العربي بحثه بلغة أجنبية، وهناك من وسائل الترجمة ما يعين الحضور على متابعة البحث ومناقشته.

سادساً: وضع المواقع بالعربية في شبكة المعلومات الدولية (الانترنيت) لما في ذلك من أهمية في جعل الأجنبي يتعلم لغة القرآن الكريم ليتابع ما في الموقع من معلومات تعينه فيما يحتاج إليه إلى جانب المواقع باللغات الأجنبية.

سابعاً: الاهتمام بالفضائيات التي تعد – اليوم – من أوسع وسائل الاتصال انتشاراً، وتستطيع الدول أن توجه فضائياتها الرسمية وغير الرسمية وجهه تخدم العربية حين تقدم ما تعرضه بلغة واضحة سليمة.

(7)

هذه خطوات تعزز اللغة العربية وتقربها إلى العالم، ولن يتحقق ذلك إلا بإنشاء هيئات أو مجالس عليا ليستطيع العرب الحفاظ على سلامة لغتهم ونموها وازدهارها، وتكون لغة الضاد إحدى اللغات العالمية.

هذا على المستوى الوطني، أما على المستوى العالمي فمن الضروري والمهم أن تقوم ((منظمة دولية للغة العربية)) تضع الخطط الكفيلة بالحفاظ على لغة القرآن الكريم ونشرها في العالم، وأن يكون للمنظمة سلطان لتحقق أهدافها، وأن تعمل بجد وإخلاص كما تعمل الفرانكفونية في الساحة الدولية. وهذه دعوة أطلقتها في شهر نيسان من عام 2002م في الكلمة التي ألقيتها نيابة عن المشاركين في افتتاح ((مؤتمر اللغة العربية أمام تحديات العولمة)) الذي عقده في بيروت ((معهد الدعوة الجامعي للدراسات الإسلامية))، وما

اقترحته في بحثي ((اللغة العربية وتحديات العولمة)) الذي قدمته في ندوة ((قضايا اللغة العربية في عصر الحوسبة والعولمة)) التي عقدت في مجمع اللغة العربية الأردني في أيلول سنة 2002م، بدعوة من اتحاد المجامع اللغوية والعلمية العربية، وما ذكرته في ورقتي ((التشريع اللغوي)) التي قدمتها في المؤتمر الرابع لمجمع اللغة العربية بدمشق في تشرين الثاني سنة 2005م.

وكان معهد الدعوة الجامعي للدراسات الإسلامية قد أقرّ في مؤتمره الذي عقده في بيروت في نيسان 2002م، تأسيس ((مجلس عالمي لرعاية اللغة العربية وتنميتها)) ووضع مشروع النظام الأساسي الذي شاركت في وضعه. وقد نصت المادة الأولى على:

((يؤسس مجلس علمي باسم المجلس العالمي لرعاية اللغة العربية وتنميتها، له شخصية اعتبارية))

ونصت الفقرة الخامسة من المادة الرابعة على:

((العمل على نشر اللغة العربية خارج الوطن العربي، والاهتمام بلغة أبناء الجاليات العربية حفاظًا على الهوية العربية الإسلامية))

واطلع على النظام العماد أميل لحود – رئيس الجمهورية اللبنانية – وقال في رسالته التي وجهها إلى رئيس المعهد – الدكتور عبد الناصر جبري – في العشرين من تشرين الثاني سنة 2002م:

((لقد اطلعت بإمعان على مشروع نظام المجلس التأسيسي لرعاية اللغة العربية وتنميتها، وقد رغبتم من خلال ما اطلعنا عليه أن تحصلوا على إشارات بهذا الخصوص. إننا نهنئكم على جهودكم في إظهار لغتنا العربية لا لغة الشعر والمنطق فحسب، بل لغة العلم والتطور والحضارة، وما رغبتم في إنشاء مجلس عالمي لرعاية اللغة العربية وتنميتها إلا تلبية لهاجس التفوق الذي تبثه فينا جماليات قوالب هذه اللغة وعبقريتها)).

ويعزز هذه الدعوة توصية الندوة التربوية التي عقدت في باريس سنة 2004م وشاركت فيها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية، وجاء فيها:

((إنشاء هيئة عالمية للغة العربية تكون إطارً جامعًا للدول والمجتمعات الناطقة باللغة العربية، وجهازًا متخصصًا يخدم لغة الضاد، ويعمل على تيسير تعليمها، والسهر على تطويرها، وتوسيع انتشارها)).

وقد تتبنى جامعة الدول العربية هذا المشروع ليكون عربيًا لما للجامعة من أثر في الساحة الدولية، وما لأجهزتها من حضور في مختلف بلدان العالم، أو تتبناه منظمة المؤتمر الإسلامي ليكون المشروع عربيًا إسلاميًا، لما لها من سلطان في كثير من الدول الإسلامية، فإن عجزت هاتان المنظمتان، أو لم تَعُدَّا ذلك من عملهما – على الرغم من أنهما أسستا لخدمة العرب والمسلمين – فقد تقوم بذلك دولة عربية لها من القدرات ما يؤهلها لإنشاء ((منظمة دولية للغة العربية)) على غرار الفرانكفونية التي تقوم بها دولة واحدة – هي فرنسة – التي أولت لغتها اهتمامًا عظيمًا، وبشّرت بها في العالم بالوسائل المختلفة، مثل فتح معاهد تدريسية، ومراكز ثقافية، وعقد مؤتمرات، ومنح جوائز لمن يكتب بها من غير الفرنسيين، وقد حققت كثيرًا مما سعت إليه في السنوات الأخيرة بفضل الجهود التي بذلت، وإسناد أمانتها العامة إلى غير الفرنسيين مثل بطرس غالي المصري، وعبدو ضيوف – السنغالي – لتضفي عليها عالمية، وتكسب الأجانب من شتى بقاع العالم.

وبعد:هل تصبح العربية لغة عالمية؟

العربية اليوم من حيث انتشارها اللغة الثالثة أي بعد الإنكليزية والفرنسية، وهي إحدى اللغات المعترف بها في هيئة الأمم، وهي قادرة على التعبير عن حاجات الناطقين بها علميًا وحضاريًا لنموها في العصر الحديث، وكثرة ما تولد من مصطلحات علمية، وألفاظ حضارية، وما ذلك إلا لتفاعلها مع معطيات الحياة الجديدة.

إن اللغة العربية في هذا العصر قادرة على تلبية مطالب المجتمع ومواكبة العلوم الحديثة، وسواء أكانت عالمية أم لم تكن، فهي هوية العرب، كما أن اللغات الأخرى هوية أقوامها. ومسألة اللغة العالمية حلم راود بعضهم منذ القرن السابع عشر، وظهرت عدة محاولات لاصطناع لغة عالمية، ومن أشهر تلك المحاولات (الاسبرانتو) التي اعتمدت على أربع لغات أوروبية هي: اللاتينية، والإنكليزية، والفرنسية، والألمانية، ولم تسد هذه اللغة التي اصطنعت لأغراض قد تكون غير لغوية، لتمسك الدول بلغاتها القومية، على الرغم من الاتحادات كالاتحاد السوفيتي، والاتحاد الأوربي وكانت جمهوريات الاتحاد السوفيتي قد عادت إلى لغاتها القومية بعد انهيار الاتحاد وظلت دول الاتحاد الأوربي محتفظة بلغاتها التي تحدد هويتها القومية والوطنية.

إن قيام لغة تسود العام كله حلم بعيد المنال، ولن يتحقق إلا إذا أصبح العالم دولة واحدة – وهذا من المحال – لاختلاف الأجناس والأديان والمصالح، ولن تدوم تلك اللغة – إن حققت الدولة الواحدة – لأنها سرعان ما تنتهي بعد أن تنهار الدولة الموحدة ويعود كل قوم إلى حدود أرضهم ولغتهم.

إن الدعوة إلى لغة عالمية تقف وراءها الآن قوى معروفة، وقد جعلت من العولمة سبيلاً للوصول إلى تحقيق هذا الهدف إلى جانب الأهداف السياسية والاقتصادية، واللغة العربية لغة العرب والمسلمين لا يعينها أن تكون عالمية أو لا تكون، مادامت واسعة الانتشار، وقادرة على التعبير عن المستجدات وتلقي العلوم المستحدثة، على الرغم من الأصوات التي يطلقها الخارجون على الأمة العربية، والمنكرون تفوق المتلقين علومهم بها، وهم يعلمون أن جميع الدول الحرة تدرس العلوم بلغاتها، وليس فيها من يدعو إلى هجر لغته الأم واتخاذ لغة أجنبية، كما في الوطن العربي الذي أبتلي بخوارجه قبل أن يبتلى بالاحتلال.